

رُفَاتُ حُلْم سامية غشير - الجزائر

هي الأرضُ الجريحة تتلذذ بتعذيب أبنائها وترتوي من أنهار دمائهم، قررت فجأة أن تكمل تفاصيل نهاياتهم التراجيديّة، لتخطّ على تضاريس تراثها رسائل اللقاء الأخير.

كان المهندس "أحمد" يعيشُ في مدينة (حلب) السّورية، مع أسرته الصّغيرة وأحبته في أمنٍ وحريةٍ، يتنعم بحفيف أغاني الشّجر والمحراث وصوت القمر الذي ينشد كلّ ليلة أناشيد الحُلم الفتي. كانت قناديل السّعادة تضيء حياتهم الحسنة، وكانت شموع السّلام موقّدةً في محراب الحبّ الجميل الذي زين حياته هو وزوجته الفاتنة "بلقيس" وثمره حبهما "سيف".

ذهب "أحمد" كعادته إلى العمل، وكانت "بلقيس" تحضّر له مفاجأة جميلة جدًّا، أشعلت عبق البهجة ونثرت عطر المحبة في بيتهما الزّمردى الذي كان ينتشي كلّ يوم بأغاني الزّمن الجميل "اعطني النّاي وغيّ فالغناء سرّ الوجود" لفيروز. اقتنت بعض (الشراشيف) الجديدة لتزف بيتهما من جديد، نظرت إلى عقارب الزّمن فرأتها تقترب في دلح جريء، انتابها رعشة قويّة ونادت مفزعة: أحمد... أحمد... وفجأة وصل أحمد قاطعا صراخها الذي هزّ أرجاء المكان قائلاً: "أنا هنا يا حبيبي، أنا هنا يا مُنايا".

عادت السّعادة من جديد لتسكن عينها الزرقاء التي تراءت كبحرٍ صاحب تراقصت أمواجه على نغمات الأصيل الشّجي.

قالت له: "حبيبي، كلّ عام وأنت بخير!"
 ملاً الرّهو قلب "أحمد" النّدي وقال لها: "ظننتك نسيت تاريخ ميلادي..
 قاطعته قائلةً: "مستحيل أن أنسى تاريخاً سكنت إليه يوماً ما".
 تقدّم نحوها "أحمد" وهو ينثر رسائل فرجه: "كلّ عام وأنت فراشة عمري،
 ريحانة فؤادي، حلّمي الشّذي ثمّ أنشدها قصيدة معطرة بدفء التوقّد
 وعبق التودّد:

تسافر بنا الحياةُ إلى شواطئ حلم
 فأرتاد محطات العبور
 وأقطفُ من شفتيك أغنيّة
 تحمّلني للأمنيات
 وأبحرُ في عنفوان عينيك الشّذي
 فأصيرُ شهريار الحكايات
 وتمنحيني قبلةً مسائيّة
 فأرتحلُ إلى تضاريس الغوايات

وبينما هما يستمتعان بتلك اللّحظات المتجليّة بنور العشق وتلك المشاعر
 الطّوفانيّة التي تدلّت تغتسل حدائق حلّمهما، فجأة تدفّق من التّلفاز صوت
 هارب انفجر يعبّر مواطن خلوتهما المنصهرة في ماء مفاتن اللّيالي، إنّها
 القيامة. إنّها الحرب. لقد اشتعلت الحرب الأهليّة وعمّت أرجاء المدينة التي
 وهبت جسدها لغوايات النيران والدّماء.

نظر الرّوّج إلى زوجته وهو يهمس في أذنها: "لن تكون هذه نهاية قصّة
 حكايتنا".



كان صراخ "سيف الدّين" يملأ المكان، نظر إليه والده قائلاً لزوجته: "ما ذنب هذا الولد البريء؟ ما ذنبه أن يعيش وسط كومة من الخراب والهلاك، يجب أن نلّم شتات أحلامنا ونركب قاربًا آخر قادرًا أن يمنحنا تذكرة الوصول إلى أحلامنا المطرزة التي نسجناها على دفاتر حياتنا".

جمعت العائلة رفات ذكرياتها الجميلة والأليمة وغادرت تلك الأرض، نظروا في حيرة وشوق إلى أرضهم..

ثم مدّ "أحمد" يده إلى الأرض وأخذ يتلمّس ترابها لعلّها تمنحه حنانًا حرييرًا وتمنعه من الرّحيل، لكنّه شعر بالجفاء، نظر إليها نائثرًا على مقبرتها آخر تعاويد عشق كتبها:

كنت عاشقًا أهرب إليك من أزمنة الفناء
يرتحل بين جغرافيتك الهيفاء

كان يغتسلُ بقَبَلِ الوفاء

ويتعطرُ بأزهارِ الكبرياء

كان يبحرُ في تجاويفك الضيِّاء

كنت أتراقصُ كفراشة حسناء

على مقطوعاتِ الألق والوفاء

لكن فجأةً قذفتني إلى مدائن الجفاء

مواسم الزّهو غادرتني

ومراقئُ الحلم هجرتني

سأحملُ شتات روجي وبوحي

وحلم تدلّل على حروف السنّاء

كانت هذه آخر رسالة "أحمد" الأخيرة: "الآن سأغادرك أيّتها الأرض العرجاء، سأغادر ضفافك الموجعة التي استعمرتني بحماقات الخيبات، لن أنكسر، لن ننكسر".

كان "سيف الدّين" صاحب السنّتين من عمره ينظر إلى والديه في ذهولٍ شديدٍ ولم يفهم ما يقول والده لكن نظرات عينيه تدرك أنّه في موعد مع الرّحيل الأخير.

أرعى اللّيل سدولّه على أرجاء تلك المدينة، ومدّ كفّه للغوايات التي كانت تُنبئُ برسائل التّهايات، ركب أحمد وعائلته زورقَ الحياة الجديدة بعد أن منح للبحر معاهد بالسّفَر، ضحك البحر وارتفعت ضحكاته تملأ المكان، وفجأةً تغيّرت ملامحه وأضحت شاحبةً حزينة، حيث احتلته التجاعيد السّمراء فكان ذلك يوحى بهشاشات الرّحيل.

تهنّد "أحمد" بقوّة ونظر إلى السّماء وكأنّه يريد أن يغازل نجومها لأخر مرّة، كان يريد أن يسمو في الحياة إلى منعرجات الأمل والحلم، كان يريد أن يعبر مسافات الحروف المتقدّمة ليخطّ على تراتيل فؤاده قصيدة عشقه للحياة. نظرت إليه زوجته وقالت: "لا تجزع يا "أحمد" سنعود يوماً إلى هذه التضاريس الحزينة التي لطالما علمتنا دروس الأمل والوصال والعطاء، سنبنّي آخر جسور للحياة في أرضنا الغراء، لا تجزع ستتحسّن الأمور وتعود البهجة تغزو ضفاف سوريا الجريحة".

نام "أحمد" وهو يحتضن زوجته "بلقيس" وابنه "سيف الدّين" وهو يحكي لهما آخر حكايات أحلامهم الزّهريّة، وهمسات الوفاء والشّدنى والجوى ينثرها مرّة على مرّة، وكانت الأمواج تتراقص على نايات الوصال، وقبل أن ينأم تكلم

آخر جملة "لن أنساك أيتها الشواطئ الحسناء، فقد منحني نفحات حلبي الجميل".

تسارعت الساعات وتناحرت فيما بينها في صمتٍ طائشٍ وأعلنت السّاعة دقائقها الأخيرة، لقد وصل الزورق إلى شواطئ "سردينيا"، لكن البحر قرّر أن يكمل آخر أطوار الحكاية، همس في جراحة شديدة: "أحببت تلك الأرواح الجميلة، كنت أغار من شلالات الوصال المتدفقة في كبرياء والتي كانت تنفجر على جغرافية تلك العيون الزمرديّة".

تصاعدت الأمواج بقوة على شواطئ ذلك البحر غاضبة جداً معلنةً حدادها بعد أن التحفت بالأسود حزنا على فراق تلك الأرواح التي التصقت أجسادها بالأرض مرددةً آخر رسائلها:

ياخذني البحر الأزرق
فأنام بين أمواجه
وزورق الألم يعبث بنا
في تيه السؤال الأخير
احملينا يا أرض
كالوليد في شرنقة الحياة
وامنحني ومضاً من حلم كان
يعزف أوتار مواسم المطر
فالهوم الآن انجلت
والدموع انسكبت

والقلب ما عادَ يكتحل بالسّواد
فرنة الموت تفجرت على الوريد
سنغادر اليوم كطائر العنقاء
وسنتجدد يوماً لنعيش الضياء
بين مراتجك الهيفاء

